تأثير الثورة السورية على اوضاع اللاجئين الفلسطينيين في سوريا

أ.م.د. هيفاء أحمد محمد

تعد سوريا الدولة الثانية بين الدول العربية من حيث عدد اللاجئين الفلسطينيين الموجودين على أراضيها ، حيث بلغ عددهم عام ٢٠١١ ما يقارب ٥١٠ ألف لاجئ مُسَجل في وكالة الأونروا ، لكن هذا العدد لا يشمل كل اللاجئين فهناك فئات غير مسجلة لدى الوكالة . ووفق احصائيات تجمع العودة الفلسطيني – واجب (فإن العدد الحقيقي للاجئين الفلسطينيين في سوريا يصل إلى ٦٠٠ ألف لاجئ من مختلف الفئات ، وهذا الاحصاء أقرب إلى الدقة إذا لاحظنا أن احصاء الأونروا يذكر فقط اللاجئين المسجلين لديها ويستثنى الفئات غير المسجلة ، هذا العدد الكبير من اللاجئين قد شارك الشعب السوري في تلقي الاثار السلبية للثورة السورة فهل اوقعت الضرر باوضاع اللاجئين في سوريا ، وما هو حجمه ، هذا ما تحاول هذه الورقة الاجابة عليه .

– طبيعة وضع اللاجئون الفلسطينيون في سوريا قبيل الثورة.

وصل الغالبية العظمى من هؤلاء اللاجئين إلى سوريا إثر النكبة عام ١٩٤٨، اذ هجّر إلى سوريا حوالي ٨٥ ألف فلسطيني ما يشكل ١٠% من مجموع اللاجئين عام ١٩٤٨، واستمرت عمليات ترحيل محدودة للاجئين فلسطينيين إلى سوريا حتى نهاية النصف الأول من الخمسينيات، نتيجة الاحتكاكات المتجددة على الحدود واستمراراً للسياسة الصهيونية في تهجير الفلسطينيين . كما شهدت السنوات التالية عمليات لجوء جديدة لفلسطينيين إلى سوريا، سواء من فلسطين أو من دول عربية أخرى نتيجة ظروف سياسية واقتصادية كما حصل في ألاعوام ١٩٥٦– ١٩٦٧–١٩٧٠–١٩٧١ وكذلك عام ٢٠٠٦ حيث قدم اللاجئون الفلسطينيون من العراق.

وتتركز الكتلة الأكبر من اللاجئين في العاصمة دمشق و المناطق المحيطة، أو ما يعرف باسم ريف دمشق حسب الترتيب الإداري للحكومة السورية . حيث يقيم ما يقارب ٤٧٩٤٠٠ لاجئ أي ما نسبته٨٠% من مجموع اللاجئين ، فيما ينتشر بقية اللاجئين على امتداد الخارطة السورية من درعا على الحدود الأردنية إلى حلب على الحدود التركية ، مع أعداد قليلة في المنطقة الشرقية التي تتسم بكثافة سكانية قليلة. يتركز اللاجئون الفلسطينيون في سوريا في ١٣ مخيم و ١٤ تجمع. (حيث يكون المخيم واقعاً تحت ولاية الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين العرب بالكامل من شؤون إدارية وأحوال مدنية، بينما يتبع التجمع لبلدية سورية

في شؤونه الإدارية) بحسب الاونروا فإن المخيمات الموجودة تنقسم إلى قسمين قسم معترف بها ١٠ مخيمات وقسم غير معترف بها ٣ مخيمات ، علماً أنه لا يوجد فرق بين المخيمات المعترف فيها وغير المعترف فيها في كيفية تعاطي الدولة السورية أو الأونروا معها.

ومن اهم مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في القطر السوري، مخيمات دمشق وريفها (اليرموك ويعد التجمع الأكبر للاجئين في سوريا أكثر من ١٤٤ ألف لاجئ ، ومخيم سبينة ، الست زينب ، خان الشيح ، خان دنون ، جرمانا). وفي حلب مخيمي (النيرب ، عين التل أو حندرات) ، و في حمص مخيم العائدين ، اما في درعا فهناك مخيمي درعا الطوارئ (القديم والجديد) ، و في اللاذقية (مخيم الرمل). واخيراً مخيم العائدين في حماه .أما بالنسبة للتجمعات فكما المخيمات، فإنها تتركز في دمشق وريفها (الحسينية ، الرمدان، دمر، دوما، جوبر، برزة والقابون ، ركن الدين ، جديدة عرطوز ودروشا ، حوش بلاس/المزة ، الحجر الأسود) و تجمعات اخرى في درعا (المزيريب ، جلين، المعلقة) واخيراً تجمع طريق الشام في حمص .

هذا الانتشار الجغرافي جعل اللاجئين الفلسطينيين يتأثرون بالأحداث التي تحصل في أي منطقة من سوريا ، وترك أثره عليهم خاصة الأجيال الجديدة منهم ، فمع وجود الانتماء العام للكل الفلسطيني اللاجئ والاستشعار بالمصير المشترك ، إلا أن هذا لم يمنع من وجود شعور بالانتماء للمنطقة ويتفاوت هذا الانتماء من منطقة لأخرى، اذ يبدو جليا أكثر من غيره عند اللاجئين الذين يعيشون خارج المخيمات والتجمعات حيث يضعف تأثير العمل الفصائلي والوطني . ومع مرور الزمن و نتيجة العلاقات التي تتنوع بين عائلية نتيجة التصاهر أو علاقات العمل والدراسة، جعلت بعض اللاجئين يشعرون بالانتماء للمصير السوري بقدر انتمائهم للمصير الفلسطيني ، وهذا ما أثر على مدى تفاعل اللاجئين مع القضايا السورية .

كان توافد اللاجئين الفلسطينيين على سوريا على مراحل عدة ، تبعاً للتطورات المأساوية التي شهدتها القضية الفلسطينية والتي كانت قضية اللاجئين أهم شواهدها . ويمكن تقسيمها إلى خمس محطات رئيسة للجوء ، فقد قام الاحتلال الصهيوني بطرد الفلسطينيين إثر النكبة عام ١٩٤٨ وفي عام ١٩٥٦ مع الاعتداء على أكراد البقارة والغنامة وبعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، فيما كانت الخلافات الأردنية الفلسطينية السبب في موجة جديدة من اللاجئين عامي ١٩٧٠-١٩٧١ لتختتم موجات اللاجئين في عام ٢٠٠٦ مع اللاجئين الفلسطينيين القادمين من العراق إثر الاحتلال الأمريكي . وأدت هذه المحطات الخمسة من اللجوء إلى وجود خمس فئات رئيسة من اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، يختلفون في وضعهم القانوني وفي التشريعات التي

تنظم شؤونهم ، لكنهم مشتركون في مصير اللجوء. ومن خلال نظرة سريعة على واقع فئات اللاجئين يتضح أن الوضع الأفضل كان للفئة الأولى(لاجئي ٤٨) وهي الفئة الأعظم وتشكل حوالي ٨٠% من تعداد اللاجئين .

وبشكل عام يعد وضع اللاجئين في سوريا جيداً مقارنة بمناطق اللجوء الأخرى، وقد أعطت التشريعات التي صدرت منذ ١٩٤٩ اللاجئين حقوقهم ضمن أطر قانونية . وقد ساعدت حالة الاستقرار النسبي اللاجئين على تحسين أوضاعهم ، خاصة مع تمتعهم بحقوق العمل والدراسة كما يتمتع بها المواطن السوري . وقد توجت هذه القرارات بالقانون رقم ٢٦٠ الصادر بتاريخ ١٩٥٦/٧/١٠ و الذي أكد على احتفاظ اللاجئين الفلسطينيين بجنسيتهم الأصلية، مع إعطاءهم ذات الحقوق التي يتمتع بها المواطن السوري من حيث التوظيف والعمل والتعليم والتجارة والعمل والخدمة العسكرية ، ويعتبر هذا القانون هو الناظم لوضع الشريحة الأكبر من اللاجئين الفلسطينيين حتى الوقت الحاضر . وقد صدر هذا القانون في عهد الرئيس السوري الراحل شكري القوتلي وبإجماع البرلمان السوري آنذاك.هذا الوضع الجيد لحياة اللاجئين الفلسطينيين في سوريا ، قد تعرض للتغيير في ظل الثورة السورية التي القت بضلالها السلبية على حياتهم ووجودهم .

- **اندلاع الثورة السورية ودور اللاجئين الفلسطينيين فيها .**

اندلعت الثورة السورية يوم ٢٠١١/٣/١٨ بتظاهرة انطلقت من المسجد العمري في درعا بعد صلاة الجمعة تنديدا باعتقال ١١ طفلا من ابناء حي درعا البلد ، واهانة وجهاء درعا الذين قابلوا رئيس فرع الامن السياسي لحل الاشكالية ، وفي هذا المسجد يصلي عدد من الفلسطينيين بحكم قربهم من المكان من جهة ، ولشهرة المسجد من جهة اخرى ، ومع تطور الاحداث واتباع اسلوب القمع في الرد على الاحتجاجات، وبالتالي اتساع دائرة الاحتجاجات ، واقدام المتظاهرين على احراق مقرات حكومية كانت قريبة من مخيم اللاجئين الفلسطينيين في درعا ، فقد اندفعت الاجهزة الامنية الى اتهام المخيم وابنائه باحداث ذلك اليوم . فيما حاولات القيادات الفلسطينية التصدي لهذا التصعيد ضد اللاجئين ، ثم جاءت الاحداث في حي الرملة الجنوبي في اللاذقية المتاخم للمخيم الفلسطيني هناك ، حين اندلعت احداث احتجاج رافقتها اعمال حرق لبعض المقار الحكومية فاصبح اتهام العنصر الفلسطيني في الاحداث اقرب الى التصديق ، وهذا ما بلورته المستشارة السياسية والاعلامية للرئيس السوري بثينة شعبان، التي وجهت اتهاما مباشرة لفلسطينيين من مخيم الرملة بالمباشرة باعمال التخريب، مما ولد قناعة لدى الطرف الفلسطيني بان الاجهزة الامنية تريد تصدير الازمة تجاه عنصر غير سوري مؤقتا ، الى حين تمكنها من قمع حركة الاحتجاج منذ بدايتها. لكن رواية تورط اللاجئين في

احداث درعا واللاذقية لم تصمد طويلا ، حين انتشرت الاحتجاجات الى مناطق لم يصلها اللاجئون في سوريا ثم عم الحراك معظم الاراضي السورية من شمالها لجنوبها. كان هذا المشهد الاول في الحضور الفلسطيني المبكر في الاحداث السورية، اما المشهد الثاني فكانوا فيه اكثر فاعلية اذ بعد ان فرضت قوات الامن والجيش السورية الحصار على مدينة درعا في نيسان ٢٠١١ خاصة درعا البلد ، الذي يمثل معقل الثورة هناك ، وهو الحصار الذي ادى لقطع كل اشكال الحياة عن المدينة ، حينها تطوع عدد من الفلسطينيين من ابناء مخيم درعا الذين يفصلهم عن الحي المحاصر وادي ، جعلوه ممرا انسانيا لنقل المؤون الغذائية ونقل الجرحى الى المستشفى الميداني الذي جهز في المخيم ، وقد استمر عمل المستشفى الميداني لاواخر ايار ٢٠١٢ حين تم تدميره، ولم تقتحم القوات السورية المخيم انذاك لرغبتها بتحييده وعدم فتح بؤرة مواجهة جديدة .

لكن الدور الانساني الذي لعبه المخيم الفلسطيني لم يستمر على صورته الاولى، بل بعد تصاعد المواجهة بين المعارضة والنظام ، بدا سكان المخيم بتشكيل مجموعة مسلحة اطلق عليها اسم كتيبة (الشهيد طاهر الصياصنة) ، وكان تشكيلها ايذانا للنظام بقصفه الذي استمر لمدة شهرين بين ايار ٢٠١٢ وحتى اجتياحه في تموز ٢٠١٢ بعد تدمير ما يقارب ٧٠% منه ، ادى القصف باستمرار على المخيم الى تهجير سكانه ووقوعهم تحت معاناة انسانية كبيرة من النواحي كافة، وسقوط عدد من الشهداء فيه ودفع عدد من عناصر جيش التحرير الفلسطيني للانشقاق عن جيشهم والالتحاق بالجيش الحر.

غير أن التحول الأخطر في واقع مخيمات سورية بدأ مع اختطاف ١٤ مجنداً من جيش التحرير الفلسطيني في مطلع شهر تموز ٢٠١٢ على طريق حماة – حلب، ثم إعدامهم جميعاً بعد أسبوعين من اختطافهم، ومع تراشق الاتهام بين المعارضة والنظام في المسؤولية عن الحادث، كان ضحايا جيش التحرير يسجلون بداية مقلقة لتطور الأحداث داخل المخيمات الفلسطينية، وخاصة مخيم اليرموك الذي انفجر بمظاهرات تنديداً بالجريمة، لتبدأ مرحلة مختلفة بكل ما فيها.

وبينما حرصت الفصائل والقوى الفلسطينية بشكل عام، على إبداء موقف حيادي تجاه الأحداث في سورية، غير أنها معظمها لم يخفِ تعاطفه مع الشعب السوري ومطالبه في الحرية والديموقراطية، مع الدعوة إلى قطع الطريق على التدخل الأجنبي الخارجي، وعلى عدم توريط المخيمات خصوصاً في النزاع المسلح بين الطرفين . الا ان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة (احمد جبريل) أعادت تاكيد تحالفها ودعمها للنظام السوري ، وتلقت الجبهة دعماً لتشكيل قوات أمنية منذ شهر آب ٢٠١٢ أُطلق عليها "اللجان الشعبية"، انتشرت بشكل مركز في مخيم اليرموك. واصطدمت مع الجيش الحر في المناطق المتاخمة للمخيم

طوال أكثر من أربعة شهور، سقط خلالها مئات الضحايا الفلسطينيين، منهم ٢٤٠ شهيداً في مخيم اليرموك وحده. وبقي هذا الحال إلى أن دخلت مجموعات الجيش الحر مخيم اليرموك، إثر انهيار لجان القيادة العامة، بعد انشقاق العشرات منهم على خلفية قصف الطيران الحربي لمسجد عبد القادر الحسيني في ٢٠١٢/١٢/١٦، والتسبب باستشهاد أكثر من ١٥ شخصاً.

- آثار الثورة السوريةعلى اللاجئين الفلسطينين.

لقد القت احداث الثورة السورية بضلالها على أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في سورية، و يقول منسق مجموعة العمل من أجل فلسطينيي سورية طارق حمود (إن أوضاع المخيمات الفلسطينية في سورية وصلت إلى حدود كارثية بكل ما للكلمة من معنى، لدينا مخيم درعا غير صالح للسكن بنسبة ٧٠٪ ما بين دمار وحرق، ومخيمات اليرموك والحسينية والسبينة محاصرة منذ أشهر عدة ، وتتعرض لقصف يومي، وعمليات عسكرية على مدار الساعة ، وكذلك مخيمات الشمال في حلب تعاني العمليات العسكرية خصوصاً مخيم النيرب المتاخم لمطار النيرب الذي يشهد قتالاً عنيفاً بين طرفي النزاع، أما مخيمات الوسط في حمص وحماة والساحل في اللاذقية فوضعها هو الأقل سوءاً مع تعرضها بين الحين والآخر لقصف وقنص) .. ويضيف أما من تبقى من الفلسطينيين في المخيمات المحاصرة فيفتقرون لمقومات الحياة البشرية، فالطعام والشراب يتوافر بحده الأدنى، فيما الاتصالات والكهرباء والماء باتت عملة نادرة، فيما هناك مخيمات أخرى مثل خان الشيح وخان دنون تحتشد فيها آلاف الأسر النازحة، وهي بحاجة لعمل إغاثي هائل لتغطية احتياجاتها، والعدد في ازدياد، كما أن هذه المخيمات باتت في الآونة الأخيرة تحت مرمى نيران الصراع.. ويؤكد أن أكثر المخيمات التي تتعرض للانتهاكات هو مخيم درعا جنوب سورية، الذي لايزال سكانه مهجرين منذ شهر ايار ٢٠١١، حين بدأ القصف المدفعي للنظام باستهداف المخيم، فيما يعيش من تبقى فيه تحت وطأة حصار وقصف وقنص يومي).

ويعد مخيم اليرموك، ثاني المخيمات الفلسطينية التي تعيش أوضاعا مأساوية، نظراً لحجم المخيم وكثافة سكانه، وعدد الضحايا الذين سقطوا فيه، حيث مازال المخيم محاصرا حتى اليوم.ومن الوضح أن خطورة الأوضاع في مخيم اليرموك تكمن في أنه بات معقلاً لمجموعات الجيش السوري الحر، ويستخدم كقاعدة أولية للاشتباك مع قوات النظام التي تحاصره منذ أشهر، فضلا عن أن مخيمات الحسينية والسبينة والسيدة زينب هي مخيمات متقاربة جغرافياً جنوب العاصمة دمشق، وتعيش وضعاً صعباً نتيجة القصف والحصار.ويلاحظ

المتابعون إن خطورة ما يجري في اليرموك يحمل أبعادا عدة، ميدانية وسياسية، فميدانياً المخيم تعرض لدمار كبير، وتهجير هو الأكبر بين المخيمات الأخرى بحكم حجم الفلسطينيين فيه، كما أنه مركز العمل الوطني والسياسي الفلسطيني ويعتبر «عاصمة الشتات»، ويحمل رمزية عالية على المستوى التاريخي والسياسي، حيث يوجد فيه مقبرة الشهداء التي تضم جثامين قادة كبار مثل أبوجهاد الوزير ومحمود المبحوح وفتحي الشقاقي، ومر فيه معظم قادة العمل الوطني الفلسطيني. كما و أن مجموعات الجيش الحر تتمركز حالياً في المخيم بعد اقتحامه إثر إنهيار مجموعات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة في كانون الاول ٢٠١٢، التي تشكلت واجهة للنظام داخل المخيم، ما تسبب في توتر على مدار أشهر بينهم وبين الجيش الحر في الأحياء المتاخمة للمخيم، كما أن ٣٠٨ أشخاص سقطوا في اليرموك وحده نتيجة الصراع الدائر.

وتسببت المواجهات والعمليات العسكرية الدائرة في سورية التي طالت المخيمات الفلسطينية، في نزوح ما يقارب الـ٣٠٠ ألف لاجئ فلسطيني، ٥٠ ألفاً منهم خارج سورية، حيث نزح ٢٢ ألفاً إلى لبنان، وما يقارب الـ ٢٦٠٠ فلسطيني إلى الأردن، أما الباقون موزعون على دول العالم وتسببت المجازر التي ترتكب في سورية بمقتل ١٠٤٠ فلسطينياً منذ بداية أحداث الثورة السورية في اذار ٢٠١١، جلهم من مخيمات دمشق . ويبدو أن النازحين إلى لبنان ليس لديهم وضع قانوني كلاجئين، ويتم التعامل معهم قانونياً وحكومياً وفق تسويات مؤقتة تجتهد بها بعض الأطر الفلسطينية مع الأمن العام اللبناني.ويشير إلى أنه بحكم العدد الموجود في لبنان من اللاجئين الفلسطينيين فإنهم يفتقرون لمتطلبات الحياة البسيطة ووضعهم الإنساني صعب جداً، كما أن الأطر الإنسانية القائمة غير قادرة على استيعاب احتياجاتهم، في ظل تقصير واضح من قبل (الأونروا) التي يفترض أنها المسؤولة إغاثياً عنه.

الخلاصة :

لقد اثرت الثورة السورية بصورة سلبية على اوضاع اللاجئين الفلسطينيين فيها، وادت الى تدمير مخيماتهم، وتهجير نسبة كبيرة منهم ، بين لجوء داخلي في سوريا او خارجي الى دول الجوار الجغرافي او الى دول مهجر جديدة . وكان هؤلاء اللاجئون يقتسمون مع السوريون مأسي هذه الحرب الاهلية ، ويزيدون عنهم انهم عانوا من لجوء الى اخر اشد وطأة . وهم في النتيجة وصلوا الى مفترق طرق لن يعيدهم الى ما كانوا فيه من استقرار وامان ، فبعد ان كانوا يتمتعون بمعاملة جيدة من الحكومات السورية المتعاقبة منذ لجوئهم الى سوريا بعيد النكبة ، فانهم قد لايستعيدوا عقب الثورة هذه المكانة ، خاصة ان النظام في حال

بقاءه واستقرار وضعه ، و إذا كان هذا الاستقرار بموجب تسوية سياسية دولية تجرد النظام من أوراقه القوية ، التي بنى عليها سياسته الخارجية، وبالتحديد موقفه من القضية الفلسطينية، فأن مستقبل الفلسطينيين سيكون غامضاً ، ويكون غامضاً بالدرجة نفسها في حال انهيار النظام، وانتهاء الواقع في البلاد إلى تناحر طائفي، أو فوضى سلاح، وعدم قيام نظام سياسي جديد مستقر. فليس ثمة ضمانة للتعامل مع الفلسطينيين وفقاً للقوانين والتشريعات السورية، في ظل مرحلة انتقالية غير مستقرة، أو في ظل استقرار النظام الحالي على أسس الدولة الشمولية أو نصف الشمولية. أما قوى المعارضة فاستغرقت في عملية التغيير السياسي والثوري الداخلي، ولم تُصدر إلا تصريحات قليلة طوال السنتين الماضيتين تجاه فلسطينيي سورية وتجاه القضية الفلسطينية بشكل عام، وهي تحمل التعاطف والدعم السوري المعتاد للقضية. ولعل وثيقة "صحيفة بر ووفاء... وثيقة العهد مع الأشقاء الفلسطينيين على الأرض السورية" التي صدرت في ٢٠١٣/٣/١٦ عن جماعة الإخوان المسلمين السوريين تمثل تقدماً مهماً في إعطاء رؤية مفصلة من أحد أبرز فصائل المعارضة السورية تجاه فلسطينيي سورية وقضية فلسطين. وتؤكد الوثيقة على (أن قضية فلسطين هي قضية الأمة المركزية، وأن الشعبين السوري والفلسطيني شعب واحد وأن لهما مستقبل واحد، وتؤكد على الالتزام بكافة حقوق اللاجئين الفلسطينيين ورعايتها)، لكن ربما هذا الموقف لا يمثل توجهات جميع فصائل المعارضة السورية . لقد كان اللاجئون في سوريا بين فكي كماشة اما التعاون مع النظام وبالتالي سيفقدون كل شئ اذا سقط النظام ، والعكس صحيح ، لهذا ليس من المتوقع عودتهم للتمتع بالظروف الجيدة التي تمتعوا بها وقت سابق في سوريا، بل كانوا جنبا الى جنب مع الشعب السوري ضحايا لهذه الازمة، والتي اثرت على حياتهم وتركت مستقبلهم بدون افق واضح .